الداء والدواء

خلق الله تعالى الانسان فى احسن تقويم ، وكرّمه بضروب من التكريم ، خلقه من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ، خلقه جاهلاً لا يعلم شيئاً ثم منحه هدايات الحواس والعقل والنبوة ، خلقه فقيراً محتاجاً الى كل شيء ، وسخر له بفضله كل شيء ، فالاكوان تعمل به وهو يعمل فى الاكوان ، ويظهر ما انطوت عليه من الابداع والاتقان ، مستعيناً بتلك الهدايات الموهوبة ، على اعماله المكسوبة ، حتى يصل كل من الانسان والاكوان الى ما أُعد له ، ويبلغ الكتاب فيهما اجله ، واعنى بالكتاب كتاب الغيب المكنون ، « قل لا يعلم من فى السموات والارض الغيب الا الله وما يشعرون أيّان يبعثون ، بل اداركَ علمهم فى الآخرة بل هم فى شك منها بل هم منها عمُون » .

جلَّت حكمة الله جعل حياة الانسان الفردية ، مثالاً ونموذجاً لحياته القومية ، يرتقى الفرد منه بالتدريج ويتربى متأثراً بحالة الاكوان ، وما تعرضه عليه شؤون أخيه الانسان ، فمنه ماينمو ويرتقى باطراد . ومنه مايعرض له المرض والفساد ، فتوقف سيره ، قبل ان يتم دَوْره ، فاما شقاء وارتقاء ، وإما موتاً وفناء ، وكذلك الامم فى اطوارها ، والشعوب فى ادوارها ، وهذه قصصها واخبارها ، ماسعدوا الا بما كانوا يعملون ، وما حل بهم الشقاء الا بما كانوا يكسبون ، « وماظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »

استعان أناس بالحواس على الحسنات ، واستعان بها آخرون على اجتراح السيئات ، ووصل قوم بالعقل الى احاسن الاعمال ، واستعمله آخرون

فى سيء الفعال ، واهتدى بالدين امم الى الصراط المستقيم ، ووقع به آخرون فى العذاب الاليم ، « وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم . وما اختلف فيه الا الذين أوتوه من بعد ما جاءهم البينات . ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم اعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالانعام بل هم اضل أولئك هم الغافلون . »

غر أمة ممن كان قبلنا دينهم ، فحسبوا ان انتسابهم اليه هو كافلهم وضمينهم وناصرهم ومنجيهم ، فقصروا فى الاعمال ، واستبدلوا النقص بالكمال ، فحل بهم الخزى والنكال ، وما اغنى عنهم الانتساب الى الانبياء ، والاعتماد على الاصفياء ، والاستمداد من الاولياء ، ولا افادهم قولهم نحن شعب الله ، الذى فضله على العالمين واصطفاه ، وحملته كتابه التوراه ، « ألم تر الى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون الى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار الا اياما معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون »

الغرور فى الدين ، هو الجرثومة التى تولدت منها جميع امراض المسلمين ، كما حل بمن كان قبلهم ، وحذروا ان يكونوا مثلهم ، فقد جاء فى الحديث المتفق على صحته « لَتَتَّبِعُنَّ سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع » والمسلمون يعترفون بهذا اجمالاً ولكنهم ينكرونه عند التفصيل . فاذا عددت لهم البدع والتقاليد التى فتنوا بها ، وحرفوا معانى كتاب الله تعالى واولوه برأيهم لترويجها ، يلوون ألسنتهم إنكاراً ، ويُنغضون رؤسهم اعراضاً وازوراراً ، واذا وصفت بهذا الغرور بعض رجال الدين ، من شيوخهم وآبائهم الميتين ، « يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كانما يساقون الى الموت

وهم ينظرون ، »

هذا الغرور فى الدين ، الذى اصبنا به من بعد الخلفاء الراشدين ، هو نقيض الغرور الذى رُمِي به الذين سبقونا بالايمان ، والذى قال فيه القرآن ، « إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم » فان ذلك الغرور هو تصدي ثلاثمائة ونيف من المؤمنين ، لزُهاء الف من المشركين ، من ورائهم الوف وزحوف من الفرسان ، وليس وراء أولئك المؤمنين الا النساء والضعفاء والصبيان ، وهذا الغرور هو خذلان ثلاثمائة مليون من المسلمين ووقوعهم بين انياب الحوادث ، ومخالب الكوارث ، لا يحمون حقيقتهم ، ولا يدافعون عن حوزتهم ، ولكنهم يستنجدون بالقبور ولا ينجدون ، ويستنصرون بأرواح الموتى ولا ينصرون ، « اولا يرون انهم يفتنون فى كل عام مرة او مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذّكرون ، »

تولدت جراثيم هذا الغرور بالدين فى العصر الاول عند ما فتح المسلمون البلاد ، ودوّخوا العباد ، وجلسوا على كرسيّ السيادة ، وضموا عليهم قطريْ السعادة ، فحسبوا أنهم غمروا بهذا الانام ، لمجرد انتسابهم للاسلام ، ثم دلهم القياس الفاسد على ان هذا اللقب (مسلمون) يعطيهم سعادة الآخرة كما اعطاهم سعادة الدنيا وكان لهم من الاحاديث الموضوعة وسوء فهم الصحيحة ما يؤيد القياس ، ويمد الوهم والالتباس ، فقصروا فيما امرهم الدين من الاصلاح للدنيا ، كما قصروا فى عمل الصلاح للاخرى ، فاخذهم العذاب من حيث لا يشعرون ، « وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون ، »[1]

ويالتهم اذا عُذّبوا بسلب سعادة الدنيا رجعوا الى قياسهم وخافوا ان يحرموا سعادة الآخرة ايضاً اذاهم استرسلوا فى هذا الغرور ، ولم يخرجوا من هذا الديجور ، ثم رجعوا الى انفسهم ، وبحثوا عن اسباب سعادة سلفهم ، وتبينوا أنها الاعمال ، لا الأمانىّ والآمال ، ثم استنّوا بسنتهم ، واستقاموا على طريقتهم ، ولم يتكلوا على شفاعتهم ، ويجعلوها مناط سعادتهم ، واعتبروا بقول خليل الرحمن ، عليه الصلاة والسلام إذ قال لابيه « لأستغفرن لك وما املك لك من الله من شيء » وبما كان من حرص النبي صلى الله عليه وسلم على ايمان عمه ابى طالب . وبحديث الصحيحين : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أنزل عليه « وأنذر عشيرتك الأقربين » فقال « يامعشر قريش اشتروا انفسكم من الله لا اغنى عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً . ياعباس عمّ رسول الله لا اغني عنك من الله شيئاً . يافاطمة بنت محمد سليني من مالى ماشئت لا اغني عنك من الله شيئاً » نعم وان اعتقاد الخلف انهم يسعدون فى الدنيا بامداد سلفهم تكذيب للحس والعيان ، واعتقادَ انهم بهم ينجون فى الآخرة اعراض عن السنة والقرآن ، فالاحتجاج بعد هذا بقول فلان وورد فلان جنون ، « ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون »

ما وقف المسلمون بغرورهم فى دينهم عند حد بل عم عندهم كل شيء حتى حكموا بالعلم الذي يرشد اليه ، فجعلوه صاداً عنه ، وبالدنيا التي يأمر بعمرانها ، فحسبوه مؤذناً بخرابها ، وبالعقل الذي بني عليه ، فجعلوه عدواً له ، ولما نزلت بهم

الامم بالشرك اذا كانوا مصلحين فى الاعمال وهذا مشاهد وناهيك بالمسلمين واليابان

عقوبة غرورهم يئسوا من كل شيء أن ينالوه بانفسهم وسجلوا على انفسهم هذا اليأس وختموه بختم الدين وطبعوه بطابعه حيث زعموا انه من اشراط الساعة وان الضعف اذا وقع بالمسلمين لا يرتفع الا ما يكون من النهضة على يد المهدي المنتظر القصيرة المدة وانما تكون بالخوارق والكرامات لا بالاستعداد والعصبية القومية ثم هي كانتفاضة الخمود للذبال لا تلبث ان تزول سريعاً وتزول الدنيا في اثرها بعد قليل . وقد مر في المنار تحقيق الحق في هذه التقاليد وبيان ضررها ، وان الساعة مغيب عنا امرها ، « يسألونك كأنك حفيّ عنها قل انما علمها عند الله ولكن اكثر الناس لا يعلمون »

فعلمنا مما تقدم ان امراض المسلمين الاجتماعية التي جعلتهم وراء الامم كلها حتى التي كانوا يسودونها ترجع الى داء واحد وهو ﴿الغرور في دينهم وفهمه على غير وجهه﴾ وان شفاء هذا الداء ليس بمحال ولا متعذر وانما المتعذر إصلاحهم مع بقائه وان الدواء الذي يذهب به هو السير بالتربية والتعليم على سنن الكون واصول الاجتماع التي اشرنا اليها في صدر المقالة واقناعهم بان ارتقاء المسلمين بدينهم في القرون الاولى لم يكن لسر خفيّ في الدين ، ولا لحب الله تعالى لذوات الذين تسموا بالمسلمين ، لان الله منزه عن عشق الذوات والاعيان ، وأفعاله لا تعلل بالاغراض كافعال الانسان ، وإنما ارتقوا به لأنه ارشدهم الى سنن الارتقاء ، وهداهم الى الصفات والافعال التي بها السمو والاعتلاء ، فهو كما تقدم هداية أُخذت على وجهها وحقيقتها ، فأدت الى غايتها وانتجت نتيجتها ، فلما اختلفت الكيفية ، انعكست القضية ، كما يهتدي بالحواس والعقل اقوام ويضل آخرون ، « وخلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون . أفرأيت

من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » »

اول اركان الاصلاح الاسلامى هو التوحيد الخالص الذى يصقل العقول من صدأ الخرافات والاوهام ويفك الارادة من أسر الدجالين ، ويعصم النفوس من حيل المحتالين ، ثم الاذعان بان سنن الله تعالى لا تتبدل ولا تتحول فمن سار عليها وصل ومن تنكبها هلك « وان ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى » حكم عام للآخرة والاولى . ثم الاعتقاد بان كل عمل ينافى مصلحة الامة او يحول دون منفعتها موجب لسخط الله تعالى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ثم تصدي طائفة للاحتساب قولاً وعملاً والدعوة الى ما به حياة الامة من علم وعمل ومباراتها للامم العزيزة الى غير ذلك مما فصلنا القول فيه من قبل وسنعيد البحث فيه ان شاء الله تعالى . « ولتكن منكم أمةٌ يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ،

ولنا الثقة بان الكون وما فيه من الآيات ، وما اكتشفه الناس من اسراره وما يكتشفونه فيما هو آت ، كل ذلك خدمة لاظهار دين الفطرة على كل دين ، « ولتعلمنّ نبأه بعد حين » ، وان دعوة الحق ستكون هى الفضلى ، وطريقة الاصلاح هى الطريقة المثلى ، ولكن لا يمكن تعيين الزمن بالتحديد ، « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شىء شهيد » . لمثل هذا فليعمل العاملون ، لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون »